مفكرة

# مراسيم دفن الديمقراطية

« لم تكن الكومونة ( كومونة باريس ) هيئة برلمانية ، بل هيئة تشريعية وتنفيذية في الوقت ذاته »

« ماركس »

المجتمع الشرقي ، الذي الهم مونتسكيو ومن بعده ماركس تأريخه ، على انه : مجتمع ما يطلق عليه اسم « الاستبداد الشرقي » . المجتمع الذي ، منذ خمسة الاف عام حتى يومنا هذا ، لم يسمع بكلمة « الديمقراطية » قط . المجتمع الذي كان وما زال قائما على الاستبداد المطلق النافي والمنافي لاي شكل من اشكال الديمقراطية ، لان سلطة الدولة المركزية خلال تاريخها الطويل ، لم تعل عليها اي سلطة شعبية حقيقية . ان نموذج الديمقراطية اليونانية المباشرة ( حكم الشعب لنفسه بنفسه ) ، والنموذج الذي ابدعته كومونه باريس ١٨٧١ ، الذي اسماه ماركس فيما بعد بـ « الشكل السياسي الذي عثرنا اخيرا عليه والذي يمكن في ظله تحقيق التحرير الاقتصادي للعمل » ، لم تكن مطروحة يوما ما على جدول اعمال تاريخنا . فهي ـ بالنسبة لتاريخنا ـ ما زالت مجرد امنية ، مجرد وعود مغدورة ، ما ليس من تحقيقها بد .

فسلطة الدولة المركزية في ليل الانقلابات راهنا ، ليست قادمة من « الشارع » بل من فوق « دبابة » . وقد برهن تاريخنا ، مرارا وتكرارا ولا يزال ، امام الوف الشواهد الدامغة : ان هذه السلطة ، سلطة التسويات والتنازلات المتبادلة ، في خطوطها الغالبة ، قد تحدث ابسط مواثيق « الديمقراطية » .

اما الهبات الثورية العفوية الخلاقة التي ابدعتها الجماهير الكادحة ، فقد بات الامر واضحا اليوم ، اكثر من اي وقت مضى ، الا لمن ليس له عين ليرى وليس له اذن ليسمع ، كانت ، ثمرتها الناضجة من نصيب السلطة المركزية للدولة وثمرتها المرة من نصيب الجماهير الكادحة .

ان سلطة الدولة المركزية ، وعلى امتداد تاريخها الطويل ، تفرض الهجوم تحت شعار الديمقراطية ، نتيجة وضعها المتأزم الذي جعلها تخاف بحساسية وادارية من اي اعتراض او معارضه وان جزئية قد تنفلت من حدودها ، لتكرس علاقات تضطهد الجماهير الكادحة على نحو لم يعد بمقدور هذه الجماهير تحمله .

حين تكون الحريات حتى ابسطها مصادرة ، والصحافة الثورية جريمة لا تغتفر ، والتنظيمات الثورية مطاردة في كل مكان ، في ظل غياب كامل للديمقراطية ، تعني ببساطة تحويل المجتمع ككل الى ثكنة منضبطة باداتي قمع السلطة المزدوجتين ( الدموي والاديولوجي ).

والحال ، ان من العبث بمكان ، ان تنتظر الجماهير الكادحة ـ التي اكتوت بعار هزائم وانتصارات ليست هزائمها وانتصاراتها ، وهي مكبلة في قيودها ، محرومة حتى ابسط حقوق وجودها ( البقاء الفيزيقي على قيد الحياة ) ـ قيام جلاديها التاريخيين المعادين والمضادين اصلا لكل ديمقراطية ، حتى بمفهومها الليبرالي ، بثورة ديمقراطية بانفسهم ضد انفسهم ، او قيامهم بالتنازل طواعية عن نعمة الامتيازات الطبقية التي يغرقون فيها حتى الاذن ، ويتفيؤن بظلها . انهم على استعداد لان يحيلوا البلاد الى ركام يتصاعد منه الدخان ، دون ان يتخلوا عن استبدادهم واستعبادهم المطلق للجماهير الكادحة ، فقد تزودوا بخير زاد من القوانين الاستبدادية التي ورثوها عن اسلافهم ، واضافوا اليها ما هو اشد قسوة ، وزادوا عليها في كل صوب واتجاه من القوانين الاستثنائية قاسمها المشترك الاعظم : مصادرة الحريات وسحق الحركة الشعبية التي بدأت ارهاصاتها بالنهوض .

قاسمها المشترك الاعظم الاخر : تنصيب الاجهزة والمؤسسات التي لا تكون مستقلة الا عن الجماهير الكادحة ، لتكفل لهم الحماية والاستقرار بها ، وتدافع عن امتيازاتها الطبقية حتى النهاية وبكل ما اوتيت من قوة ، ولتشل ارادة الجماهير الكادحة لكي لا تستطيع هذه الاخيرة من تغيير الشروط الاجتماعية والعلاقات الطبقية المفروضة عليها رغم انفها . ولتعيش اخيرا عالة على المجتمع ككل وتشل حركته .

ان ضرورة الانتقال من النقيض الى النقيض : من الاستبداد الشامل الى الديمقراطية الشاملة ، الامر الاكثر ورودا على جدول اعمال التاريخ الثوري لحقبتنا الحبلى هذه . وهو بالتالي لا يمكن له ان ينعزل عن شروط الفعل التاريخي والضرورة التاريخية اللازمة له ، والامكانيات التي باتت راهنا هي المطروحة .

اما المنابع المختلفة التي ارتوى « الثوريون » قيلولتهم منها ، فهم ، بدلا من كشف الازمة بوعي الجماهير الكادحة ، والاشارة الى المخرج الثوري منها ، تراهم يفرضون دعوة هذه الجماهير لحضور مأدبة التصالح الطبقي ، حيث يجلس « على قدم المساواة » جنبا لجنب : العبيد مع اسيادهم ، ليشربون نخب « مصالحهم المشتركة » مستعينين بالقداس الليبرالي ، دون ان يروا طبعا : ان الانظمة الليبرالية الهرمة وبرلماناتها ، هي ذاتها ، آخذة بالاحتضار في عقر دارها ، لتصيب « مخضياتها » امراضها باسرع مما تتصور هي .

لكن الديمقراطية الحقة توجد حيث تقوم الجماهير الكادحة نفسها باغتصاب كل السلطة لصالح نفسها من جلاديها التاريخيين ، لانها رفضت العيش في جحيم نظام هو العنف الدموي تجسد نظاما .

اما كل الباقي ، فليس له وظيفة سوى حرف مسيرة الجماهير الكادحة لاهداف هي غير اهدافها الحقيقية وطموحاتها الحقيقية .

فالسياق التاريخي للتجارب الحية للجماهير الكادحة ، سوف يفرض نفسه على « شكل » التفكير الثوري المقبل ، وهي بالتالي كفيلة بانتقال اشكال الوعي الاخرى من التخلخل الى التماسك ، من التبعثر الى الشمول .

بقلم : زهير حسن